الدفاع الوطني اللّبناني- تموز ١٩٩٦

وضع المرأة من خلال نظريات
النظام الأمومي والنظام الأبوي

د. إلهام منصور (*)

للإحاطة بهذا الوضع، تقتضينا جدية البحث، أن نرجع إلى الماضي البعيد، إلى غياهب التاريخ، تاريخ الإنسان على الأرض، على ما في هذا التاريخ من غموض وافتراضات وتناقضات، حسبها البعض وقائع ثابتة، بنى عليها نظرياته، في حين وصفها البعض الآخر بالأوهام والأساطير! وعلى الرغم من ذلك، فالباحث المتجرّد، يستطيع تلمّس الحقيقة، أو بعضاً من هذه الحقيقة، من خلال ما تركه لنا المؤرخون والعلماء، من نظريات، يتناقض بعضها البعض الآخر في شأن المرأة، وكينونتها.

ففي حين أن أغلب النظريات، على اختلاف منابعها تعترف بسيادة النظام الأمومي- Matriarcal، في المجتمعات البشرية البدائية، وبتحوّل هذا النظام رويداً رويداً، إلى نظام أبوي- Patriarcal- نرى أن هناك نظريات أخرى ترفض الاعتراف بمرحلة النظام الأمومي، أي بسيادة المرأة، وتسند رفضها هذا إلى مبررات عدّة.

وسنستعرض فيما يلي، هذه النظريات، لنرى، كيف ولماذا كان النظام الأمومي سائداً في المجتمعات البشرية، ثمّ تحول فيما بعد، إلى نظام أبوي حسبما تزعم النظريات الأولى، ثم نتدارس النظريات الثانية في رفضها الاعتراف بقيام النظام الأمومي في جميع مراحل التاريخ، وفي بعض المبررات التي تؤدي هذا الرفض.

(*) استاذة محاضرة في كلية الآداب.

١- النظريات التي تنطلق من نظام أمومي:

١- انطلاقاً من النظريات التي تقول بالنظام الأمومي، يبدو أن العنصر الوحيد الذي يؤمّن استمرار الجنس البشري هو المرأة. الأولوية إذا كانت لها ولها وحدها. ومردّ ذلك بالتّأكيد إلى جهل الرجل وعدم إدراكه لدوره في عملية التوالد الاستمرارية، واعتقاده أن المرأة سبب التكاثر، وسرّ الحياة، في حين أن المرأة بدورها، كانت تنظر إلى عملية التوالد هذه، وكأنها عملية محض طبيعية، خارجة عن الإرادة. ومن هذا الواقع كانت أولوية المرأة في المجتمعات، قاعدة ويقيناً.

فلو صحّ ذلك، يمكن التساؤل: ما هو دور الرجل في استمرار وبقاء الجنس البشري، وهل لوجوده من مبرر، ما دام وجود المرأة لوحدها، كافياً لاستمراريّة الجنس البشري؟

من الواضح أنّ للمرأة علاقة مباشرة وعضوية بالطفل أو المولود الجديد، فهو منها، وبدونها قد لا يستطيع البقاء، هو بحاجة إليها ليبقى، وهذا ما يبرر أولوية دور المرأة في عملية استمرارالجنس، ذلك أن علاقة الرجل بالطفل المولود، تبدو علاقة هامشية، جانبية، غير مباشرة ونسبية أو تخمينية. إنّه والد الطفل حقاً، ولكن ما الذي يجعله يهتم بالطفل ويحنو عليه؟ يقال أنّ هناك سببين لذلك: الأوّل، تفكير الرّجل اللاّواعي بكون هذا الطفل منحدراً منه، والثاني، كون هذا الطفل هو ابن امرأة أحبّها، فمن الطبيعي إذاً أن يكون حبّه للطفل وحدبه عليه، امتداداً لحبه لها[1]. وبالنظر لجهل الرجل دوره حينذاك في عملية الاستمرار البشري، كان الرجل إذا أحب امرأة ما، يرى نفسه مدفوعاً لحب أولادها وللعمل على تأمين حياتها وحياتهم.

وهنا لا بد من التّساؤل عن كيفية الانتقال إلى مرحلة النظام الأبوي. يقول "مالينوفسكي"[2] ما معناه: "أن البشرية بكاملها مرّت بمرحلة أمومية، وذلك بسبب وجود فترة من الزمن، كانت الأبوة فيها غير مكتشفة. والشعور بالأبوة لم يأخذ الطابع الذي هو فيه الآن، إلاّ بعد اكتشاف الرجل لدوره في عملية التكاثر، عندما أدرك أن الولد يتكوّن في أحشاء الأم، من زرعه، لذلك نشأت عنده ميول غريزية، دفعته إلى حب السيطرة من جهة، ومن جهة ثانية للصراع مع الموت من أجل الحياة: فهو يرى أن المولود الجديد الذي هو منه، ليس إلاّ عبارة عن استمراره هو في الحياة. فالابن هو تخليد لأبيه".

اكتشاف الأبوة هذه، كان بمثابة بداية مراحل الانحطاط في النظام الأمومي، وكان من نتائجه أن أصبح الرجل مدفوعاً للتأكد من كون المولود هو من زرعه، لا من زرع غيره، فراح يتوسّل الطرق للتحقق

---

[1] راسل برتران: "الزواج والأخلاق" ص: 26.
[2] راسل برتران: "الزواج والأخلاق" ص: 27.

من أمانة المرأة، ولم يجد إلى ذلك سبيلاً إلاّ في استعبادها. ولكن كيف يستعبدها؟ - الجواب! بالقوة الجسدية. ثم رويداً رويداً توصّل إلى السيطرة التامة عليها جسدياً وبالتالي معنوياً وروحياً. وهكذا حرّم على المرأة في معظم الحضارات، أي مساهمة فعلية في ميادين الحياة، دورها الأوّل والأخير قد حصر فقط في تأمين النسل: "هكذا كل النظام الاقتصادي تغير مع هذا الاكتشاف للأبوة، ومرحلة النظام الأبوي بدأت عندما أصبح الرجل يفرض البكارة والعفاف على المرأة التي يريد الاقتران بها"[3].

ملاحظة: لم تظهر لنا هذه النظرية كيف اكتشف الرجل دوره في عملية التوالد.

٢- هناك نظرية ثانية تنطلق من معين النظرية الأولى، أي من الإقرار بأولوية سيادة النظام الأمومي، ومن ثم انتقال هذه السيادة إلى الأب- النظام الأبوي- لغير الأسباب التي تعتمدها النظرية الأولى. ففي حين كانت هذه الأسباب في إدراك ووعي واكتشاف الرجل لدوره في عملية التوالد، يرى القائلون بالنّظرية الثانية، أي نظرية المادية التاريخية- Le Matérialisme Historique إن أسباباً أخرى هي الكامنة وراء عملية التحول في لعبة انتقال السيادة! فما هي هذه الأسباب؟

تزعم نظرية المادية التاريخية[4]، أن المرأة في العصر الحجري، كان لها من القوة الجسدية ما مكنها من تحمل أعباء ومتطلبات العيش، أي في قدرتها على ممارسة الأعمال الزراعية البدائية في مرحلة ما قبل الآلة. ففي هذا الوضع، ومن هذه الناحية المادية الصرف، كانت المساواة بين الرجل والمرأة قائمة كوضع طبيعي متكافئ. كما أنّه من الناحية الفكرية والاجتماعية كانت هذه المساواة قائمة بينهما لأنه كان للمرأة دور هام في تعايشها مع الرجل، فهي كانت تعتني بالأطفال وتتحمل المسؤوليات الجسام في اتخاذ دور المبادرة ووضع المحرمات (Tabous) [5].

غير أن هذا الوضع الطبيعي أخذ ينهار شيئاً فشيئاً مع اكتشاف المحراث (Charrue) وظهور فكرة الملكية الفردية، وما نجم عنها من جنوح في تفكير المالك ليس إلى استغلال عمل الغير فقط بل إلى استعباده وأكاد أقول امتلاكه أيضاً.

أما "انجلز" في كتابه "أصل العائلة والملكية الخاصة" فإنّه يبرر إخفاق المرأة في الاحتفاظ بمساواتها مع الرجل، بتقلص دورها في عملية الانتاج كما وكيفاً. فهو يقول ما معناه: "في المرحلة الزراعية البدائية"، كانت المرأة تشارك الرجل في الإنتاج إذ كانت تقوم داخل البيت بأعمال توازي من حيث الأهمية

---

[3] المرجع نفسه، ص 30.

[4] دي بوفوار سيمون: "الجنس الآخر"، ص 67....

[5] فريفيل جان: المرأة والشيوعية، ص:17-20.

عمل الرجل فصار يعتمد على الصيد حيناً وعلى الاقتناص عن طريق الحروب حيناً آخر، في حين بقي عمل المرأة محصوراً ضمن إطار البيت بشكل جامد...، الأمر الذي خلق فارقاً بين العملين، إذ استمر عمل المرأة في رتابته البيتية وتطور عمل الرجل إلى الصعاب، فتفوّق الرجل على المرأة في نوعية وكمية عمله وإنتاجه. وكان استعباد المرأة نتيجة مباشرة إذاً لتقسيم العمل ولقيمة الإنتاج...

وكذلك فإن "جان فريفيل" يقول: "أن اكتشاف المعدن ومن ثم الحروب التي أضحت أهم وسائل المحافظة على الاستمرار وعلى توسيع الملكيات، جعل دور الرجل في استمرار الملكية أرفع شأناً وأكثر أهمية من دور المرأة، لأنها لم تشاركه في ميادين القتال، بل ظلت مستغفرة في أعمالها المنزلية التي أصبحت تحتل دوراً ثانوياً جداً في عملية الاستمرار، من حيث كونها تتطلب جهداً ونشاطاً قام بهما الرجل وحده بدون أن تشاركه فيهما المرأة.

من هنا كانت بداية التحول في النظام العائلي، من نظام أمومي دخل في مرحلة الانحطاط إلى نظام أبوي أخذ يتمركز على أسس مبنية ركائزها على وعي الرجل وإدراكه لدوره في عملية التوالد من جهة وشعوره من جهة ثانية بأنه هو المسؤول الأول عن عملية البقاء والاستمرار. وهكذا انقلب الانتماء العائلي، فصار للأب بعد أن كان للأم، بما مهد لظهور "واحدية الزواج"- Monogamie- فرضها ليأمن إلى سلامة نسله ويتحقق من استقلاله فيه وفرديته في عملية الانجاب ويحافظ بالتالي على الملكية. الأمر الذي يجعلنا نميل الى الاعتقاد "بأن بداية الصراع الطبقي في تاريخ الإنسانية كانت صراعاً بين الرجل والمرأة، في نظام عائلي محض، يرتكز إلى واحدية الزواج، وأن بداية نظام الاستعباد الطبقي كانت في استعباد الرجل للمرأة...[7]" ذلك أن هذا الواقع كي يستقر، ارتكز على مفهوم الإنتاج في ماهيته وفي قيمته، وتوطدت سيادة الرجل انطلاقاً من هذه الأسس.

وفي الكتاب المشار إليه آنفاً، والذي يشرح فيه انجلز أسباب اخفاق المرأة، يقول هذا المفكر ما معناه: "أن العنصر الأساسي في التاريخ هو الإنتاج من أجل استمرارية الحياة المباشرة. والإنتاج هذا على نوعين: إنتاج مادي لضمان مقومات الوجود المادية كالمواد الغذائية والمساكن وما إلى ذلك من أدوات ضرورية للعيش، وإنتاج جنسي لضمان استمرار العنصر البشري. وجميع المجتمعات تخضع لهذين النوعين من الإنتاج".

---

[7] انجلز: "أصل العائلة والملكية الخاصة"، ص 28-29.

فإذا ما انطلقنا من هذا التحليل، كيف يمكن تفسير تخلُّف المرأة في وضع توزّعت فيه نوعاً ما الأدوار بين الرجل والمرأة؟ لأنّه إذا كان الرجل يؤمن توفير مقومات الوجود المادية، فإن المرأة بدورها تؤمن استمرارية العنصر المنتج بالذات، فما الذي أدّى إذن إلى تقلّص فعالية دور المرأة وبالتالي إلى استعبادها؟

يبدو أن لسيادة الرجل أكثر من مبرر، رغم مشاركة المرأة له في عملية الإنتاج المعقدة. صحيح أن للمرأة دوراً أساسياً في عملية الإنجاب، غير أن هذا الدور يبدو استهلاكياً بقدر ما هو منتجاً: فالمرأة في فترات الحمل والرضاعة، هي كائن استهلاكي أكثر من إنتاجي، وحتى إنتاجها الذي هو الأولاد يبقى عنصراً استهلاكياً لفترة طويلة من الزمن، مما يجعل المرأة حتى في دورها الأساسي، سبباً لزيادة الاستهلاك المباشر داخل العائلة الصغيرة التي تنتمي إليها، ويجعل إنتاجها اجتماعياً أكثر من عائليّاً!.

من هنا تبين أن اخفاق المرأة لا يعود إلى وضعها الاجتماعي، بل إلى وضعها العائلي الضيق. واستعباد المرأة ما كان إلاّ نتيجة لتكوين العائلة التي فرضها الرجل لتأمين اشتراكه بصورة حقيقية أكيدة في عملية الاستمرار والتخليد، وعلى هذا يمكننا القول بأن الرجل قد نجح وشارك المرأة في إنتاجها، وخضعت المرأة لمفهوم العائلة دون أن تتمكن من مشاركة الرجل في نوعية نتاجه. ألمّ الرجل بدوره في الإنتاج الذي كان في الأساس من اختصاص المرأة وعمل على توطيد سيادته بمنعها من مشاركته في نتاجه الخاص. وهذا ما يسعى الرجل إلى الحفاظ عليه حتى أيامنا هذه!.

ب- النظريات التي تنفي وجود نظام أمومي في التاريخ:

تنفي "سيمون دي بوفوار"[8] وجود أي نظام أمومي في التاريخ وترى أن طبيعة المرأة، أي تكوينها الفيزيولوجي هو المسبب لوضعها الدوني.

ربما! ولكن في اعتقادها أن تكوين المرأة الفيزيولوجي بحد ذاته لا يكفي لتبرير وضع المرأة الدوني بالنسبة للرجل، بل هنالك، على ما يبدو لنا، عوامل أخرى، ناجمة بالطبع عن تركيب المرأة ومحيطة به كإطار بالصورة وكمظهر حسي له، أوصلت المرأة إلى الاستعباد. وعديدة هي هذه العوامل وباستطاعتنا ذكر اثنين منها وهما الأكثر أهمية:

---

[8] دي بوفوار سيمون: "الجنس الآخر".

أوّلاً: - جهل المرأة والرجل على السواء لفترات العقم عند المرأة، وبالتالي لقصر هذه الفترات، الأمر الذي جعل المرأة في حالة تأهب متواصل ومستمر للعمل! كما جعلها مأخوذة بعملية التوالد ونكاد نقول منصرفة إليها كلياً بحيث لم يعد لها وقت للقيام بأية أعمال أخرى، علماً بأن عملية الحمل هذه كانت تتميز بكونها عشوائية، طبيعية ومشابهة تماماً لمثيلتها عند الحيوان.

ثانياً- حب الكسل والاسترخاء. نرى أنّه باستطاعتنا تعليل وتبرير واقع المرأة بهذا العامل، ولكننا لا ندري إذا كان هذا الكسل ناتجاً عن وعي وإدراك أو أنّه كان نتيجة لانزلاق غريزي، أو لانسياق عن غير وعي والاحتمال الثاني هذا، يبدو الأكثر يقيناً، ذلك أنّ المراة كانت ترى نفسها مؤمنة من جميع النواحي، وترى أساليب العيش مؤمنة لها... وأساليب العيش هذه لم تكن، كما نعلم، تتعدى العيش المادي، أي إمكانية الاستمرار البيولوجي، مما يوحي بأن المرأة في هذه المرحلة البدائية من الحياة، ربما كانت ترى نفسها وكأنها هي التي تستعبد الرجل.

هذا ما نستنتجه من وضع نفترض أنه كان في بداية الإنسانية، ونعتقد أن هذا التحليل والاستنتاج مفترضان لوضع بدائي كانت له سببية خاصة ووقائع ملازمة لا يمكننا الآن أن نلم بها بكليتها.

فالرجل في هذه المرحلة البدائية، انطلق إلى العمل فعانى المتاعب والمشقات لكي يؤمن العيش والراحة له وللمرأة. فمن مجابهة الطبيعة والسير في المخاطر والإقدام على الصعاب من الأعمال، تتولد الحيلة للتغلب على هذه الصعاب، والحيلة بنت الفكر. وهكذا راح الرجل يفكر ويبحث فانعتق شيئاً فشيئاً من عبوديته الأولى وسار في طريق التحرر. وهكذا أدرك الرجل دوره، في حين بقيت المرأة في شبه غياب عن هذا الواقع، فأخذت الفوارق بينهما تتكابر وتزداد: هو الذي ينتج وهي التي تستهلك، فصارت مملوكة له إذ لا سبيل لها للعيش من دونه، وراح هو يعوض عما يعانيه من متاعب ومشقات في سبيل العيش بسيطرته عليها، فالمتاعب والمشقات تهون أمام فكرة السيادة...

وهكذا انغمست المرأة واكتفت من الحياة بالعيش بينما انطلق الرجل في التفكير والبحث، فكوّن عالمه الخاص واعتبر المرأة فيه، مجرد آلة أو شيء. وارتضت المرأة دورها هذا، فهو سهل لا معاناة فيه ولا تعب. ولكننا نظن أنّه يجب تجريد كلمة "ارتضت" مما تنطوي عليه من طابع الإرادة، لأن المرأة، في هذا الدور، أخذت تفقد إنسانيتها تدريجياً لتعيش "التشييء" الذي طبّعها به الرجل وأراده لها ظناً منها أنّه دورها الأساسي... وهكذا دخلت المرأة إلى عالم الرجل، العالم الذي كونّه لنفسه، ووجدت نفسها فيه مقيدة كل يوم بقيد جديد، فتراكمت عليها القيود بسبب عدم تطورها بصورة متوازية مع تطور الرجل.

غير أننا نعتقد أن هذا الوضع لم يدم طويلاً، إيماناً منّا بسنّة التطور وسببيته. فالرجل جابه الحياة وتولّدت عنده فكرة الحرية والسيادة، ومن وضع مماثل تماماً وجدت المرأة نفسها فيه، تكونت عندها أيضاً فكرة التحرر... فقد كانت الحروب والثورات الاجتماعية بمثابة نقاط انطلاق للحركات التحررية عند المرأة[9]، ذلك أن المرأة في فترات الحروب وجدت نفسها، وقد غاب عنها الرجل، مرغمة على العمل لتتمكن من سد حاجاتها المعيشية. فأخذت تعي ذاتها وتتذوق طعم الحرية... فإذا ما عاد الرجل يوماً وقعت بينهما المجابهة... وهذا ما سنراه في دراسة التطور التاريخي لهذه الناحية.

قلنا سابقاً أن نظرية "سيمون دي بوفوار" تعتمد على تركيب المرأة الفيزيولوجي، وتنفي وجود نظام أمومي في التاريخ. ولإثبات هذه النّظرية أخذت صاحبتها تعللها فلسفياً: فهي ترى أنّ وضع المرأة الآن هو غير وضع الرجل وتوضح لأسباب هذا الاختلاف بين الوضعين فتقول ما معناه: "في حال تواجد فئتين من البشر في آن واحد، كل منهما تريد فرض سيطرتها على الأخرى، وفي حال التعادل، ينشأ بينهما، إن في العداوة أو في الصداقة، ولكن دائماً في جو من التوتر، علاقة متبادلة. وإذا كان لإحدى الفئتين امتياز معين، تصبح هي الرابحة، وتستعمل كل قواها لتخضع الفئة الثانية لها. من هنا نفهم أن الرجل، عبر التاريخ، أو منذ نشأة التاريخ، أراد أن يفرض سيطرته على المرأة. ولكن ما هو الامتياز الذي سمح له أن يفرض هذه السيطرة؟"[10].

وتجيب "سيمون دي بوفوار" عن هذا السؤال بجواب ذي شقين: فمن ناحية تعلل سيطرة الرجل بما عنده من مقومات إيجابية، ومن ناحية ثانية تعلل هذه السيطرة بما عند المرأة من جوانب سلبية، وتقسم المراحل التاريخية إلى ثلاث:

١- مرحلة البداوة:

في هذه المرحلة، كانت المقوّمات الإيجابية عند الرجل تتركز في قوته الجسدية، وهذه القوة الجسدية تفترضها "سيمون دي بوفوار" كمعطى أساسي. فهي تقول ما معناه: "في بداية الإنسانية كان الإنسان لا يستعمل إلاّ أعضاءه أو جسمه لمجابهة الطبيعة. إذ كانت الطبيعة في أوج قوتها تجاه الإنسان الذي لم يكن

---

(9) تاريخ التطوّر الحضاري والعلمي للإنسانية.
(10) دي بوفوار سيمون "الجنس الآخر"، ص: 79.

لديه الآلة بعد. ففي زمن كهذا كان للقوة الجسدية الأهمية الكبرى، وهذا ما جعل للرجل بعض الأفضلية على المرأة"[11].

إذا كان هذا التحليل صحيحاً، فكيف نستطيع اليوم أن نفسِّر وجود بعض القبائل البدائية كقبيلة "التشمبلي"[12] حيث نجد وضعاً يتعارض مع الوضع الذي تستند إليه "سيمون دي بوفوار"، أي أن المرأة في هذه القبائل، تقوم بالأعمال التي نعتبرها في مجتمعنا الحالي من أعمال الرجل، وهو الذي يقوم بالأعمال المنزلية التي هي في نظرنا من اختصاص المرأة؟ يجيب العلامة جان روستان عن هذا السؤال بما معناه: "وجود هذه القبائل يدفعنا إلى التحفظ في القول بأنّ الفوارق النفسية بين الجنسين ترتكز أصلاً على أسس عضوية".

أما الجوانب السلبية عند المرأة، أي التي تستند إليها "سيمون دي بوفوار" لتبرر نظريتها، فتستنتجها الكاتبة من دراسة التطورات التاريخية لقضية المرأة في القبائل البدائية. هذه القبائل لم تكن تعير مسألة التكاثر كبير اهتمام، ذلك لأنّ عدم تعلقها بأرض معيّنة نتج عنه غياب تمثلها لفكرة الاستمرار وعدم إيمانها بالخلود. هذا الواقع الذي تعيشه القبائل البدائية، جعلها لا ترى أي رابط بين الأصل والفرع ولا تعترف بأي علاقة بينها وبين ذريتها. فالأولاد كانوا بمثابة عبء القبيلة وهذا ما كان يبرر قتل الأطفال. ومن الطبيعي أن المرأة في واقع كهذا وفي نطاق هذه الذهنية لم تكن في وضع تستطيع فيه أن تفخر بدورها الفيزيولوجي. وما كان يحدث عندها ما هو إلاّ نتيجة لقوى غامضة تفعل فيها وتؤلمها. وبالتالي إلى اعتبار إنتاج المرأة غير ذي أهمية وإظهار كونه نتاجاً سلبياً.

ولكن إذا درسنا مفهوم قتل الأطفال- Infanticide- في الحضارات المختلفة، نرى أن هناك، لقتل الأطفال أسباباً عديدة غير التي أوردتها "سيمون دي بوفوار": ففي بعض القبائل كان قتل الأطفال لتسوية العدد بين الذكور والإناث، وفي بعضها الآخر يعود قتل الأطفال إلى انصراف الأم إلى مشاغل خارج المنزل وداخله، الأمر الذي كان يحد من قدرتها على الاعتناء بكل الأطفال. وفي البعض الآخر يعود قتل الأطفال لأسباب محض اقتصادية، أي إلى عدم توفّر الإمكانيات المادية لدى الأهل لتأمين العيش لكل الأطفال[13].

---

(11) دي بوفوار سيمون "الجنس الآخر"، ص: 80.
(12) روستان جان: "الإنسان"، ص: 100.
(13) دي بوفوار سيمون: "الجنس الآخر"، ص:84.

هذا من ناحية، أما من ناحية ثانية، في المرحلة البدائية التي تتكلم عنها "سيمون دي بوفوار"، أي مرحلة البداوة، فلم يكن عدم تعلق الإنسان بالأرض وتنقله المستمر لنفي فكرة الاستمرار، بل لإثباتها. ففي هذه المرحلة، وتلبية لغريزة البقاء، كان الإنسان يترك الأرض المجدبة وينتقل إلى أرض مخصبة ليؤمن الحياة، وإلاّ فما كان عليه إلاّ البقاء حيث الأرض المجدبة والفناء فيها إذا لم تدفعه قوة الاستمرار الحيوي. إذاً، فعدم تعلق الإنسان بأرض معيّنة لا ينفي فكرة الاستمرار ولكنه ينفي فكرة الخلود. لأنّ الإنسان كان يريد الاستمرار الفردي وهذا ما جعله يتنقل. أما فكرة الخلود التي تعني الخلق فكانت لا واعية لديه: فهو يجابه الطبيعة بجسده لا بعقله.

٢- مرحلة الصيد:

بعد مرحلة البداوة هذه، انتقل الإنسان إلى نوعية ثانية من الحياة، وهي المرحلة التي ترتكز على الصيد. وفي هذه المرحلة، تركيب المرأة الفيزيولوجي فرض عليها البقاء في المنزل، والاعتناء بالأطفال. فحياتها كانت تنحصر بالتكرار و"الآنية"- Immanence- أمّا وضع الرجل فكان مغايراً تماماً لوضع المرأة هذا، فهو الذي يؤمن العيش لأفراد العائلة، وهذا العمل "كان يتم بواسطة نشاط فعلي ناتج عن استعلائه على الطبيعة الحيوانية. الخلق عند المرأة هو أمر طبيعي، والخلق عند الرجل هو ضد الطبيعة، أي، لإرغامها على طاعته".

فالرجل لم يعمل للإستمرار المادي فقط، عمله كان لتفجير الحواجز الطبيعية، ولفتح المجالات أمام المستقبل. فالحياة ليست القيمة المثلى أو الغاية النهائية بالنسبة للرجل، بل هي الوسيلة التي عليها أن تخدم أهدافاً أهم منها. وهنا تقول "سيمون دي بوفوار" ما معناه: "ليس بإعطاء الحياة بل بالمخاطرة بها يرتفع الإنسان عن الحيوان، نفهم إذاً، أن الأهمية في العالم ليست للجنس الذي يعطي الحياة بل للجنس الذي يقتلها، ومن هنا عظمة الرجل"[15].

---

(15) المرجع نفسه.

وفكرة الكتابة هذه هي واقع قد أثبته التاريخ البشري: ففي كل الحضارات وفي كل المجتمعات كانت السيادة دائماً للفئة الطاغية والمنتصرة في الحروب، إذاً للقوة! وهذا ما رآه أفلاطون وحاول طوال حياته أن يغيره فلم يستطع: أراد الحكم للعقل وإذا به دائماً بيد القوة.

٣- مرحلة الزراعة:

في المرحلة التاريخية التي كانت تعتمد فيها الإنسانية على الصيد، كان وضع المرأة هامشياً بسبب عدم مساهمتها فيه. وفي مرحلة الزراعة، أي عندما اعتمد الإنسان على زراعة الأرض، أخذت المرأة دوراً مهماً. وهذا الدور لا يعود إلى نشاط المرأة بالذات، ولكنه يعود إلى الأسباب نفسها التي جعلتها في المرحلة السابقة كائناً ثانوياً. وهذه الأهمية كانت تفسّر بتقييم الطفل في حضارة ترتكز على الزراعة.

مرحلة الزراعة هذه تنقسم إلى قسمين: مرحلة الزراعة البدائية، غير الآلية، والتي كانت تشارك فيها المرأة الرجل مشاركة فعلية، ومرحلة الزراعة الآلية التي منها انطلقت فكرة الملكية. ومن فكرة الملكية هذه انبثقت فكرة الاهتمام بالطفل، فأصبحت الأمومة عملية مقدسة. وفي هذه المرحلة كان الرجل لا يزال جاهلاً دوره في عملية الانجاب. ولهذا السبب كان الطفل يأخذ اسم الأم، ويتبع قبيلتها هي. وسيادة المرأة في هذه المرحلة كانت تعود إلى تشبهها بالأرض. فالأرض، كمورد حياة وحيد للقبيلة كانت تنتج القوى الغامضة نفسها التي كانت تنتج بها المرأة.

إن انتماء الطفل إلى الأم، حمل بعض العلماء على الاقرار بمرحلة أمومية. وهنا تتفق "سيمون دي بوفوار" مع "ليفي ستروس" على هذه التحليلات نفسها: أن انتماء الطفل إلى عائلة الأم لا يشكّل مبرراً كافياً لذلك، فالمرأة لم تكن سيدة العائلة. السيادة كانت تعود لخال الأطفال، أي لأخيها، إذاً للرجل.

وتتفق أيضاً دراسة "سيمون دي بوفوار" مع دراسة "ليلي برون"[16] فكلتاهما ترتكزان على دور المرأة الفيزيولوجي الذي كان سبباً لإبقائها في عناية الطفل، ولاختفائها عن أي نشاط اقتصادي، أو سياسي، أو فكري. "مصيبة المرأة، هي أنّها، بيولوجياً وجدت لتكرر الحياة، بينما، في نظر المرأة، الحياة لا تحمل مبرراتها الذاتية، هذه المبررات التي هي في اعتقاد المرأة، كما في اعتقاد الرجل أهم من الحياة نفسها"[17].

---

(16) برون ليلي: "مشكلة المرأة".

(17) دي بوفوار سيمون: "الجنس الآخر" ص:85.

إنّ خطأ "سيمون دي بوفوار" لا يقع في التسلسل التاريخي لقضية المرأة. ولكنه يقع في نقطة الانطلاق. فهي تقول ما معناه: "الإنسان لا يكفر بذاته- مقولة التماثل أو الهو: Le même- دون أن يضع مفهوم أو مقولة الآخر- L'autre-. كانت المرأة تمثل الآخر النسبي قبل المرحلة الزراعية، ثم أصبحت تمثل الآخر المطلق بعد هذه المرحلة. وذلك لأنّها أصبحت هي أرض الرجل ومركز إخصابه.

هنا تنطلق "سيمون دي بوفوار" من الفلسفة الوجودية، أي من سارتر الذي وضع هذه التحليلات النظرية. وما قاله سارتر عن الإنسان بوجه عام، طبقته "سيمون دي بوفوار" على قضية المرأة. الخطأ إذاً، هو في جعل الرجل يستقطب كل مفهوم الإنسانية. والفلسفة التي كانت مع سارتر فلسفة الإنسان قد تحولت معها إلى فلسفة الرجل وحده. فهي تقول: "تجسد المرأة إيجابياً النقصان الذي يحمله الكائن في قلبه. ويحقق الرجل ذاته بالاقتران بها"(18). لقد أصبحت المرأة هنا نقصاناً وليس وجوداً، والحلول التي تصل إليها الكاتبة هي نتيجة هذا المنطلق: إمّا الرضوخ وقبول مفهوم الآخر أو النقصان، أما التمرد، وذلك بوضع الرجل بمثابة النقصان، ووضع الذات بمثابة النقصان، ووضع الذات بمثابة "التماثل أو الهو". لقد أخفقت "سيمون دي بوفوار" في دراستها، لأنّها لم تجد أي إمكانية لقاء بين المرأة والرجل. فهي لم تصل إلى وحدانية الجوهر الإنساني في الرجل وفي المرأة على السواء.

المراجع:

- RUSSELL Bertrand "Le Mariage et la Morale". Traduction de Gabriel Beauray : 21e ed.
- De BEAUVOIR Simone. « Le Deuxième Sexe ». (Idées N.R.F.).
- FREVILLE jean : «La Femme et le Communisme. Anthologie des Grands Textes du Marxisme ». éd sociales.
- ENGELS : « l'Origine de la famille et de la Propriété privée ».
- « Histoire du Developpement Scientifique et Culturel de l'Humanité ». (U.N.E.S.C.O)
- ROSTAND Jean : « l'Homme » (idées N.R.F.)
- KLINEBERG Otto : « Psychologie Sociale » (R.U.F) Paris 1963. Traduit de l'anglais pa R. Avigdor. Coryell. (2 Tome).

---

(18) المرجع نفسه، ص:191

Traduit de l'allemand par Madeleine Mourleu- Edmond Berheim- S. Braun-L. Réan-Ch. Adler. Publication de la société de librairie et l'édition.